شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء النصرانية في عهد الدولة العباسية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٩ عيسى بن فرُّخنشاه

﴿اسمهُ واصلهُ ودينهُ﴾ هو عيسى بن فَرُّخنشاه من نصارى بغداد وكان نسطوري النِحلة اشتهر في اواسط القرن الثالث للهجرة والتاسع للمسيح في ايّام الخلفاء العبّاسيين المستعين والمهتدي والمعتزّ والمعتمد تكرُّر ذكرهُ في عهدهم في تاريخ الطبري. ولعلَّ اسمهُ يدلّ على كون اصلهِ من العجم وقد ورد في بعض روايات الطبري على صورة «فَرْنشاه» وممَّا اخبرهُ في حوادث السنتين ٢٤٥ و٢٤٩ و٢٥١ه (٣: ١٤٤١ و١٥١٣—١٥١٤ و١٦٤٠) انَّ الخليفة المستعين اتَّخذهُ كاتب لوزيره الحسن بن مَخلَد سنة ٢٤٥ (١٨٥٩م) ثم ولّاهُ ديوان الخراج بعد عَزْل الفضل بن مروان سنة ٢٤٩ه (٨٦٣م). واثبتهُ عليهِ خلفهُ المعتزّ. وذكر في تاريخ سنة ٢٥٢ه (٨٦٦ م) انَّ الاتراك وثبوا عليهِ فتناولوهُ بالضرب واخذوا دوابَّهُ فقام المغاربة للدفاع عنهُ. وروى في تاريخ سنة ٢٥٦ (٨٧٠م) ثورة الاتراك على الخليفة المهتدي وثبات عيسى بن فرُّخنشاهُ في وجههم وقال: «انَّ الامور كانت تجري على يدهِ وانَّ مقامهُ كان كمقام الوزير»

وعلى ظنّنا انهُ هو الذي اشار اليهِ ابن ماري في تاريخ بطاركة المشرق (ص ٨٣) حيث قال انَّ فَرُّخانشاه قام باستقبال يوانيس مطران الموصل لمَّا تعيَّن جاثليقاً على النصارى سنة ٢٨٠ (٨٩٣م). امَّا سنة وفاتهِ فلم نقف عليها وقد اشتهر من قرابتهِ الأَخوان سعيد وعبدالله ابنا فَرُّخنشاهُ ولعلَّ عيسى كان بكرهما. وكان سعيد يكنّى بابي عمرو ثمَّ ذكرهما هلال الصابي في تاريخ الوزراء (ص ١٦١ و٢٠٥ و٢٤٠—٢٤١)

وقال انهما كانا نصرانيين وكاتبين للوزير ابي الحسن بن الفرات وذكر لهما اخباراً شتى. وكذلك ذكر عريب القرطبي في تاريخ الصلة (ص ٥٩) الفضل بن يحيى بن فرخانشاه الديراني النصراني من ديرقنا على عهد الخليفة المقتدر واستصفاء الخليفة لماله

﴿آدابهُ وشعرهُ﴾ كان عيسى بن فرخانشاه من كتّاب ديوان الخلفاء ذوي الانشاء البديع. ذكرهُ ابن النديم في الفهرست (ص ١٦٧) فقال: انهُ كان كاتباً مقلًا وقد ذكر لهُ الصابئ في أدب الكتّاب شعراً قال (ص ٤٦): «اهدى بعضُ الكتّاب غلاماً كاتباً الى رئيس لهُ وكتب اليهِ يصفهُ بالخطّ وغيرهِ. وسمعتُ من يحكي انَّ قائل ذلك عيسى بن فرخانشاه بابراهيم بن عبّاس الصولي وكان عيسى يكتب لهُ ولا ادري كيف صحّتهُ لاني لم اعتدّ بما لم اسمعهُ من افواه الرجال (من الكامل):

إقبَلْ هديَّةَ شاكرٍ تجزيهِ بالتَّبْرِ الجليلا
بدراً يُضيءُ اذا نظرْ تَ اليهِ لم يألَفْ أفولا (١
اني بعثتُ بهِ وكنتُ بحسن موقعهِ كفيلا
لمّا رأيتُ بخطّهِ حُسناً يصيدُ بهِ العقولا
كمُنَمنمِ المَوْشيِّ قد سحبَ القيانُ بهِ الذيولا (٢
او كالرياض بكى الحيا فيها فأوسعها هُمولا (٣
وتراهُ للمعنى اللطيفِ م اذا اثرْتَ بهِ قَبولا
لا مستميدًا منك اذ تُملي عليهِ ولا مَلولا
عرَفَ المبادئَ والوصو لَ من الحكايةِ والفُصولا

(١) يقال: افل البدرُ افولًا اذا غاب

(٢) قال في شرحهِ: يقال وشيتُ الثوب وشيًا من باب وَعَدَ رقشتهُ ونقشتهُ فهو موشيّ والاصل مفعول. ونمنمتهُ نمنمة رقشتهُ وفي الصحاح: هي خطوط متقاربة قصار شبه ما تنسمُ الريحُ من دقاق التراب ولكل وشيٍ نمنمة. والقيان جمع قينة وهي الأمة المغنية او اعمّ. والتنمين التزيين بالوان الزينة

(٣) الحيا مقصور الغيثُ. وهمل المطر همولًا جرى

وصنوفَ ترتيبِ الدعا ءِ وأنْ يُقَصِّرَ او يُطيلا
والهَمْزَ والممدود والـمقصور والمَثَلَ المَقُولا
والفعلَ والاسماءَ والـمصروفَ منها والثقيلا
فاستَكْفِهِ وأضمِرْ لهُ ان لا تُريد له البديلا
يحملْ بفضل لسانهِ وبيانهِ منك الثقيلا

وروى الصولي ايضاً (ص ٨٤) قال دخل عيسى بن فرُخانشاه على جارية وهي تكتب خطاً حسناً فقال (من الطويل) :

سريعةُ جَرْيِ الخطِّ تَنظمُ لؤلؤاً وينثرُ دُرًّا لفظُها المترشفُ
وزادت لدَينا حظوةً ثمَّ اقبلَتْ وفي إصبَعَيْها اسمرُ اللونِ مُرْهَفُ(١)
أَصَمُّ سميعٌ ساكنٌ متحرِّكٌ ينالُ جَسيماتِ المدى وهو اعجفُ(٢)

١٠ ابن بطريق

في كتاب مسالك الابصار في اخبار ملوك الأمصار لشهاب الدين ابي العباس احمد العمري (نسخة المكتبة الخديوية ٥ : ١١٧) بعد ترجمة ابن عدلان ذكر المؤلف ابياتاً نسبها الى ابن بطريق ولم يزد افادةً . وقد تسمّى غير واحد بابن البطريق كسعيد ابن البطريق صاحب التاريخ ويحيى او يوحنا بن بطريق وعيسى بن بطريق وكأنهم نصارى عاشوا في القرن التاسع للميلاد . والمرجّح انَّ الابيات لاحدهم نذكرها هنا تتمّة للافادة يخاطب فيها الشاعر موفّق الدين ابن عدلان متفكّهاً (من البسيط) :

موفَّقَ الدين يا مَنْ في فكاهتهِ وفيهِ يحلو لعَيْنِ الساهرِ الأَرَقُ

(١) مُرهف اسم مفعول من ارهفتُ السيف ونحوهُ إذا رقّقتَ شفرتَهُ
(٢) الاعجف الهازل

انَّ ابنَ عدلانَ في ايقاد شمعتهِ ما شانَهُ الفَيظُ من بُخلٍ ولا الحَنَقُ
لكن رأى الليل أولى ان يُقَضِّيَهُ في نَيّراتِ معـانٍ منك تأتلقُ
لا شيء احسنُ منها اذ بدت شُعُلًا شتَّى يُنظَّم فيها لؤلؤٌ نَسَقُ

١١ ابن بُطلان المتطبّب الراهب

﴿اسمهُ ووطنهُ ودينهُ واساتذتهُ﴾ قال جمال الدين القفطيّ في تاريخ الحكماء (ص ٢٩٤): هو الحكيم ابو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون طبيب متطبّي نصراني من اهل بغداد قرأ على علماء زمانهِ من نصارى الكرخ. وقال ابن ابي اصيبعة في عيون الانباء من طبقات الاطباء (١ : ٢٤١) : « كان قد اشتغل على ابي الفرج عبدالله بن الطيب (١ وتتلمذ لهُ وأتقن عليهِ قراءة كثير من كتب الحكمة وغيرها. ولازمَ ايضاً ابا الحسن ثابت بن ابرهيم بن زهرون الحرّاني الطبيب واشتغل عليهِ وانتفع بهِ في صناعة الطبّ وفي مزاولة اعمالها ». وجاء لجمال الدين القفطي في محلّ آخر (ص ٣١٤) ما حرفهُ : « وقد كان ابن بطلان هذا من اصحاب ابي الفرج ابن الطيّب البغداديّ وكان ابو الفرج يُجلّهُ ويعظّمهُ ويقدّمهُ على تلاميذهِ ويكرّمهُ ومنهُ استفاد وبعلمهِ تخرّج وقد رأيتُ مثال خطّ ابي الفرج لهُ على كتابه ثمار البرهان من شرحهِ وهو : « قرأ عليَّ هذا الكتاب من اوّلهِ الى آخرهِ الشيخ الجليل ابو الحسن المختار بن الحسن ادام الله عزّهُ وفهّمهُ غاية الفهم »

﴿اخبارهُ واسفارهُ﴾ قد اغنانا جمال الدين وابن ابي اصيبعة عن تفتيش اخبارهِ والتنقيب عنها الّا انَّ بين روايتهما تبايُناً لا بُدَّ من ذكرهِ للانتقاد. قال القفطي (ص ٢٩٤) : « كان (اي ابن البُطلان) مشوّهَ الخِلقة غير صبيحها كما شاء الله فيهِ وفضُلَ في علم الاوائل يرتزق بصناعة الطبّ وخرج عن بغداد الى الجزيرة والموصل وديار بكر ودخل حلب واقام وما حمدها » . ومن ظريف ما حصل لهُ في حلب وقتئذٍ ما اخبرهُ

(١ هو الفيلسوف النسطوري كاتب الجاثليق صاحب التآليف الدينيّة والفلسفيّة والطبيّة المتعددة المتوفى سنة ١٠٦٥م (اطلب كتابنا المخطوطات العربيّة لكتبة النصرانيّة ص٣٢ ع٦٧)

القفطي قال (ص ٣١٥): «ولمّا دخل ابن بُطلان الى حلب وتقدّم عند المستولي عليها سألهُ رَدَّ امر النصارى في عبادتهم اليهِ فولّاهُ ذلك واخذ في إقامة القوانين الدينيّة على اصولهم وشروطهم فكرهوهُ. وكان بحلب رجلٌ كاتب طبيب نصرانيّ يُعرف بالحكيم ابي الخير بن شرارة وكان اذا اجتمع بهِ وناظرهُ في امر الطبّ يستطيل عليهِ ابن بطلان بما عندهُ من التقاسيم المنطقيّة فينقطع في يدهِ واذا خرج عنهُ حملهُ الغيظ على الوقيعة فيهِ ويحمل عليهِ نصارى حلب. فلم يمكن ابنَ بطلان المقامُ بين أظهرهم وخرج عنهم وكان ابن شرارة بعد ذلك يقول: لم يكن اعتقادهُ مرضيًا» (١

ثم قال القفطي: وخرج ابن بطلان عن حلب الى مصر فاقام بها مدّةً قريبة واجتمع فيها بابن رِضوان المصري الفيلسوف في وقتهِ وجرت بينهما منافرة احدثتها الغالبة في المناظرة وخرج ابن بطلان عن مصر مُغضَباً على ابن رِضوان وورد انطاكية راجعاً عن مصر فاقام بها وقد سَئِمَ كثرة الاسفار وضاقَ نَطْنهُ عن معاشرة الأغمار فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض دِيَرَة انطاكية وترهّب وانقطع الى العبادة الى ان توفي بها في شهور سنة اربع واربعين واربعمائة (١٠٥٢م).

ورواية ابن القفطي كاد ابنُ العبريّ ينقلها بحرفها في تاريخهِ مختصر الدول (ص ٣٣١)

أمّا رواية ابن ابي اصيبعة فهي اوسع واوفق وهي تختلف عن رواية جمال الدين في عدّة امور قال (ص ٢٤١): «وكان ابن بُطلان معاصرًا لعليّ بن رِضوان الطبيب المصري وكان بين ابن بُطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ولم يكن احد منهم (منهما) يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلّا ويردّ الآخر عليهِ ويُسَفّه رأيهُ فيه. وقد رأيتُ اشياء من المراسلات التي كانت فيما بينهم (بينهما) ووقائع بعضهم (بعضهما) في بعض. وسافر ابن بطلان من بغداد الى ديار مصر قصدًا منهُ الى مشاهدة علي بن رِضوان والاجتماع به. وكان سفرهُ من بغداد في سنة ٤٣٩ (١٠٤٢م). ولما وصل في طريقه الى حلب اقام بها مدّةً واحسن اليه مُعزّ الدولة ثمال ابن صالح بها واكرمهُ اكراماً كثيرًا. وكان دخولهُ الفسطاط في مستهلّ جمادى الآخرة من ٤٤١ (ك ١ ١٠٤٩) واقام بها ثلث سنين وذلك في دولة المستنصر بالله

١) لعلّه يشير بذلك الى مذهب ابن بطلان النسطوري

(ص ٢٤٢) من الخلفاء المصريين. وجرت بين ابن بُطلان وابن رضوان وقائع كثيرة في ذلك الوقت ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة. وقد تضمّن كثيراً من هذه الاشياء كتابٌ ألّفهُ ابن بُطلان بعد خروجه من ديار مصر واجتماعه بابن رضوان. ولابن رضوان كتابٌ في الردّ عليه. وكان ابن بُطلان اعذب ألفاظاً واكثر ظرفاً وأميَز في الادب وما يتعلّق به. ومما يدلُّ على ذلك ما ذكرهُ في رسالته التي دعاها بدعوة الاطباء. وكان ابن رضوان أطبَّ وأعلَمَ بالعلوم الحكميّة وما يتعلّق بها. وكان ابن رضوان أسود اللون ولم يكن بالجميل الصورة. ولهُ مقالة في ذلك يردُّ فيها على من عيَّرهُ بقُبح الخلقة وقد بيَّن فيها بزعمه انَّ الطبيب الفاضل لا يجب ان يكون وجههُ جميلاً. وكان ابن بطلان اكثر ما يقع في عليّ بن رضوان من هذا القبيل واشباهه. ولذلك يقول فيه في الرسالة التي وَسَمها بوقعة الاطبّاء (من الطويل):

فلمَّا تبدَّى للقوابلِ وجههُ ... نَكَصْنَ على أعقابِهِنَّ من النَّدَمْ

وقُلْنَ وأخفَيْنَ الكلام تستُّرًا ... ألا ليتنا كنَّا تركناهُ في الرَّحِمْ

«وكان يلقبهُ بتِمساح الجنّ. وسافر ابن بُطلان من ديار مصر الى القسطنطينيّة واقام بها سنةً وعرضت في زمنه اوباء كثيرة. ونقلتُ من خطّهِ ما ذكر من ذلك ما هذا مثالهُ قال:

«ومن مشاهير الاوباء في زماننا الذي عرض عند طلوع الكوكب الانساري في الجوزاء من سنة ٤٤٦ (١٠٥٤م) فانَّ في تلك السنة دُفن في كنيسة لوقا بعد ان امتلأت جميع المدافن في القسطنطينيّة ١٦٠٠٠ نَسَمة في الخريف. فلمَّا توسط الصيف في سنة ٤٤٧ (١٠٥٥م) لم يوفِ النيل فمات في الفسطاط والشام اكثر اهلها وجميع الغرباء إلّا من شاء الله. وانتقل الوباء الى العراق فأتى على اكثر اهله واستولى عليه الخراب بطروق العساكر المتعادية واتصل ذلك بما الى سنة ٤٥٤ (١٠٦٢م) وعرض للناس في اكثر البلاد قروح سوداويّة واورام الطحال... ولمَّا نزل زُحَل برج السرطان تكامل خراب العراق والموصل والجزيرة واختلت ديار بكر وربيعة ومُضَر وفارس وكرمان وبلاد المغرب واليمن والفسطاط والشام واضطربت احوال ملوك الارض وكثُرَت الحروب والغلاء والوباء... (وذكر مَن فُقد من العلماء بزمانه في مدّة بضع عشرة سنة) بوفاة الاجَلّ المرتضى والشيخ ابي الحسن البصري والفقيه الحسن القدوري واقضى القضاة الماوردي وابن الطيّب الطبري على جماعتهم رضوان الله. ومن اصحاب علوم القدماء ابو عليّ بن هيثم وابو سعيد اليماني وابو علي بن السمح وصاعد الطبيب (ص ٢٦٣) وابو الفرج عبدالله

ابن الطيّب . ومن متقدّمي علوم الادب والكتابة علي بن عيسى الربعي وابو الفتح النيسابوري وجسنيار الشاعر وابو العلاء بن تريك وابو عليّ بن موصلايا والرئيس ابو الحسن الصابي وابو العلاء المعرّي . فانطفأت سرُج العلم وبقيت الدنيا بعدهم في الظلمة »

« وتوفي ابن بطلان ولم يتّخذ امرأةً ولا خلف ولداً ولذلك يقول من ابيات (من الطويل) :

ولا احدٌ ان مُتُّ يبكي لميتتي سوى مجلسي في الطبّ والكُتب باكيا

(قلنا) فمن هذا يتّضح وجود عدّة اختلافات بين رواية ابن ابي أصيبعة ورواية جمال الدين القفطي :

١ً يذكر جمال الدين قبح صورة ابن بطلان . واما ابن ابي اصيبعة فانهُ ينسب ذلك الى علي بن رضوان خصمه . ولو كان ابن بُطلان مثلهُ قبحاً لَما تجاسر على هجوه

٢ً قال جمال الدين انّ ابن بُطلان « اقام في مصر مدّةً قريبة » اما ابن ابي اصيبعة فجعل اقامتهُ هناك « ثلاث سنين »

٣ً ذكر جمال الدين انّ ابن بطلان عاد من مصر الى انطاكية ورغب في ادبرتها . اما ابن ابي اصيبعة فيذكر انهُ سافر من مصر الى القسطنطينية واقام فيها سنةً

٤ً وجعل جمال الدين وفاة ابن بطلان في انطاكية سنة ٤٤٤ (١٠٥٢م) على خلاف ما ورد من التفاصيل في ابن ابي اصيبعة اذ يذكر ما كتبهُ في السنتين ٤٤٥ و ٤٤٦ . لا بل ذكر في جملة تآليفه (ص ٢٤٣) مقالةً صنّفها في انطاكية سنة ٤٥٥ (١٠٦٣م) ويؤيد ذلك بقوله « انّ ابن بطلان صنّف كتاب دعوة الاطباء ألّفها للامير نصير الدولة ابي نصر احمد بن مروان » . قال : « ونقلتُ من خطّ ابن بُطلان وهو يقول في آخرها : فرغتُ من نسخها انا مصنّفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملك المنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينيّة في آخر ايلول من سنة ١٣٦٥ (اي من تاريخ اليونان) . ويكون ذلك بالتاريخ الاسلامي من سنة ٤٥٠ » فترى انّ ابن بطلان مكث زمناً طويلاً في القسطنطينيّة وانّ وفاتهُ بعد السنة ٤٤٤ بعدّة سنين . وفي كشف الظنون للحاج خليفة (٤ : ٣١٨) انّ وفاة ابن بُطلان وقعت

سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠—١٠٧١م) وبين التاريخين كما ترى بونٌ عظيم

﴿ أدب ابن بطلان وشعره ﴾ يشهد على أدب ابن بطلان وشعره ابنُ ابي اصيبعة حيث يقول (١ : ٢٤٣) : « ولابن بُطلان اشعار كثيرة ونوادر ظريفة وقد ضمَّن منها اشياء في رسالته التي وسمها بدعوة الاطباء وفي غيرها من كتبه . ودعوة الاطباء هذه قد عُني بطبعها المرحومان الدكتور بشاره زلزل في مصر والدكتور اسكندر البارودي في الطبيب. ومنها نسخةٌ حسنة قديمة في مكتبتنا الشرقيَّة. وهذه بعض امثلةٍ من شعر ابن بطلان مما ورد في كتابه دعوة الاطباء (ص ٢٠) قال في اختيار الاصحاب (من الوافر) :

عدوُّك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحابِ
لانَّ الداء اكثرُ ما تراهُ يكونُ من الطعام او الشرابِ

وقال (ص ٢٤) في منفعة الادوية (من الوافر) :

فانَّ المُرَّ حين يَمُرُّ حلوٌ وانَّ الحُلوَ حين يضرُّ مرُّ
فخُذْ مُرًّا تُصادِفْ منهُ حلوًا ولا تَعْدِلْ الى حلوٍ يَضُرُّ

وله (ص ٦٢) يهجو طبيباً (من المنسرح) :

قالت لهُ النفسُ كُنْ طبيباً تقضي على الناس بالذهابِ
تأخذُ مالَ العليلِ قهرًا ثمَّ تؤاتيهِ الى التُرابِ

وقال (ص ٦٧) في نكبات الزمان بعد فقد احد احبابه (من البسيط) :

عينُ الزمانِ أصابَتنا فلا نظرَتْ وعَذَّبتْ بعذابِ الهجر ألوانا
قد كنتُ أشفقُ من دمعي على بَصَري فاليومَ كلُّ عزيزٍ بعدكم هانا

ومن اقواله (ص ٧٠) عن لسان من لا يرى إلَّا سلامة نفسه (من الرمل) :

انّما دُنيـايَ نفسي فـاذا ذهبَتْ نفسي فلا عاش أحَدْ
ليتَ انّ الشمس بعـدي غَرَبَتْ ثمّ لم تَطْلُعْ على اهلِ بَلَـدْ

وقال (ص ٨٧) في مصالحة العدوّ (من الوافر) :

وكم من مُرْتَـدٍ للصُلح يومـاً فلم يَنْجَحْ بذاك الارتيادِ
لانّ الجُرْح يُنْقَضُ بعد حينٍ اذا كان البناء على فسادِ

ومما انشده في البطنة والشرّة (من المنسرح) :

كم اكلةٍ دخلَتْ حَشا شَرِهٍ فأخرجَتْ روحهُ من الجسدِ
لا بارَكَ اللهُ في الطعـام اذا كان هـلاكُ النفوسِ بالمَعِـدِ

(له بقيّة)

الإبل في نظر ضابط افرنسي

لحضرة الاب جبرائيل لوفلك اليسوعيّ

ليس شرقيّ يجهل ما للابل من عظيم الشأن والاعتبار في عين اهل البـادية من العرب وهم يدعونهـا سُفُن البرّ وقد اتّسعوا بوصفها حتى لو جُمع ما قالوا عنها شعرًا ونثرًا لضاقت به عدّة مجلّدات. قـال القزويني في عجائب المخلوقات (طبعة غوتنغن ص ٣٧٨) ونقلهُ الدميري في كتاب الحيوان (١ : ١٦) ما حرفهُ :

« الابل من الحيوانات العجيبة وان كان عجَبُها سقط من اعين الناس لكثرة رؤيتها وهو انّما حيوان عظيم الجسم سريع الانقياد ينهض بالحمل الثقيل ويعرك بيه ويقسك بزمامهِ فارةً فتذهب بهِ الى حيث شاءت. ويتّخذ على ظهرهِ شبه بيت يقعدُ الانسانُ فيهِ مع مأكولهِ ومشروبهِ وملبوسهِ بطروفها والوسادة والسرقة واللحاف كأنّهُ في بيتهِ ويتّخذ للبيت سقفًا وهو يمشي بكل هذه . . . وقد جعلها الله تعالى طوال الاعناق لتثور بالاثقال وصبّرهـا على احتمال العطش حتى